

نوال السعداوي ل(نون):

المرأة العراقية دفعت ضريبة الحرية !

تختلط الاوراق كلما جمعني لقاء حميم مع الدكتورة نوال السعداوي، فلا أدري هل انا مع امرأة تجسدت في شكل ثورة.. ام ثورة تجسدت في شكل امرأة.. أراؤها لم تعترف يوما بالخطوط الحمر، دفعت ثمنها عبر معارك يتردد في خوضها أعتى الرجال. بسبب مواقفها خسرت وظيفتها في وزارة الصحة المصرية عام 1972. اسست عام 1982 منظمة تضامن المرأة العربية التي اوقف نشاطها فيما بعد وفقا لقرار حكومي. هي على قائمة اغتياالات الجماعات المتطرفة منذ عام 1988 حيث اضطرت للهجرة خارج مصر وعادت بعد الحكم لصالحها في قضية (حسبة) - رفعها محامو هذه الجماعات- كانت تهددها بالتفريق بينها و بين زوجها الدكتور شريف حتاته. رغم ترجمة كتاباتها الى ثلاثين لغة، الا ان الأزهر منع عام 2004 روايتها (سقوط الامام) وشاركته الكنيسة منع روايتها الاخرى (الرواية).. أدمنت السير في حقول الالغام دون ان تفقد بريق الامل الذي لا يفارق عينيها و اصرار امرأة قررت الا تنكسر.

بحكم تاريخها في العمل بقضايا المرأة تتابع نوال السعداوي اوضاع المرأة العربية، والعراقية تحديدا، وما تواجهه من تحديات حسب رأيها:

(اخطر هذه التحديات هي التيارات السلفية التي تتجاذب المرأة لتعيدها قروناً الى الورا.. في العراق، البلد الذي اعطى العالم العربي اول وزيرة. اذا عدنا الى الكتب السماوية الثلاثة -وانا قرأتها جيدا- سنجد انها اعطت للمرأة مكانة اقل من الرجل، باستثناء الدين الاسلامي الذي منحها بعض الحقوق-وضع المرأة في التوراة يوازي مكانة البهائم والعبيد!!! من البديهي عند حدوث ردة الى الفكر السلفي، لا بد ان تنحدر المرأة معها الى الوضع الادنى، ثم تتوالى الاهداف لتشمل كل ما يدعو الى العقل والحرية مثل الثقافة والفنون والابداع. كتبت مقالاً يدعو الى الغاء دار الافتاء في مصر، لأنني لا افهم كيف تحكم بلد بدار افتاء والمفروض انها تحكم بالقانون المدني. هناك محاولات لا تنقطع لتحجيب عقل المرأة -وهي خطيرة اذا لم ننتبه لها- ما زلنا نذكر المزايدات الدينية التي واكبت الاعتداء الاسرائيلي الاخير على لبنان، رغم ان حسن نصر الله لم يطرح نفسه من خلال شعارات دينية في قيادة هذه الحرب واختار شعار وحدة لبنان).

- اذا عدنا للعراق، هل تتابع عمل المنظمات النسائية في ظل ما يحيطها من الظروف والمعوقات... تقاطعني مستدركة:

(طبعاً العبء عليها مضاعف بحكم المخاطر التي تتعرض لها اثناء ممارسة دورها. احرص على الالتقاء والتواصل بالشخصيات النسائية العراقية، خصوصا في المؤتمرات العالمية حتى اسمع منهن، لان التحدي الذي يحيط تجربتهن حاليا يجعل منها تجربة فريدة. اتمنى حدوث رابط او

صلة بين كل هذه المنظمات حتى تكون نتيجة جهودهن اقوى. العراق يمر بنقطة تحول خطيرة لا بد ان تواجها وحدة نسائية قوية تضع اولويات اساسية امامها... محاربة كل جهة تريد سلب المرأة العراقية من مكاسب تاريخية حققتها. ايضا الترويج المكثف لدعوة المرأة الى ممارسة الحرية التي استحققتها وحرمت منها لسنين طويلة، لان الحكم الفاشي لا يولد سوى القهر والخوف. لا بد ان تتجاوز المرأة كل هذا لأن الامل كله معقود عليها لاعادة بناء الاسرة العراقية والمجتمع العراقي الذي ننتظر ولادته بعد ازالة آثار الاحتلال)

- مع ضرورة دور المرأة في المجتمع، الا ان صورتها لا تنعكس على الفضائيات الا في نموذجين ابعد ما يكونا عن حقيقة هذا الدور.. فهي اما عارية الفراش رمزا للجنس او منقبة تحرم علينا حتى انفاسنا.. اين النموذج الصحيح للمرأة؟ تتفق معي مضيئة:

(فعلا الصورة حاليا اما "الأسلمة" او "الأمركة" لا ارى نموذجا واحداً على الفضائيات لطبيبة أو مهندسة او ناشطة في حقوق المرأة. هذا الصراع ليس عشوائيا، هو مقصود و متعمد. في معظم مؤلفاتي شخصت المجتمع الذي نعيشه بأنه مجتمع طبقي -أبوي، كلاهما يقهر المرأة، الأول يقهر الطبقة الكادحة -والمرأة تشكل نسبة كبيرة منها- والثاني مجتمع ذكوري يخضعها ايضا لسلطة تقهرها. هذا النظام الاجتماعي بطبيعته يقسم النساء الى اما نمط "مومسات للجميع" او نمط "الزوجة العفيفة" وهي بنظرهم كائن محجب عقليا لا يسمح له بممارسة اي دور في الحياة. فكر ما زال ينظر للمرأة برؤية عصر "حزام العفة"! هذا المجتمع الطبقي -الابوي غير الأخلاقي لا يمكن ان يحقق استمراريته الا بتقسيم النساء الى هذين النمطين. اما الفضائيات فهي المكان الامثل لترويج هذا الاتجاه بحكم كونها المجال الاكثر انتشارا وجذبا وتأثيرا على الرأي العام. كتبت دراسة عن صورة المرأة في أدب نجيب محفوظ وعباس العقاد وتوفيق الحكيم وهي للأسف صورة لا تتعدى ما ذكرناه عن نمطي اما "المومس او الزوجة العفيفة" وانا اسأل لماذا لم تقدم لنا صورة واقعية بعيدا عن الانماط الهزيلة.. امرأة انسانة تحب وتخطى وتنجح وتفشل... كتابات قليلة جدا صدرت تتناول بعمق حرية المرأة... للأسف حوربنا وصودرنا وهددنا بالقتل.. انا ضربت بالحجارة في الشارع ثمنا لممارستي حرية التعبير عن رأيي.

بصراحة لا تحتمل الالتفاف حول الحقائق، مناقشة قضية حرية وحقوق المرأة لا بد ان تكون بعيدا عن الموروثات والقيود السلفية والا سنظل ندور داخل دوائر مغلقة من الجدل العقيم مع جهات تفسر بعض ما ورد في الكتب السماوية لصالح وجهة نظرها السلفية والسياسية.. سندخل في نقاشات لا تنتهي حول قضايا مثل "هل تضرب المرأة او لا... هل هي ناقصة عقل ودين ام لا"... الى اخر هذه الامور. انا ابنة رجل ازهري، لم يفكر في حرماننا من التعليم والعمل او فرض الحجاب علينا انما لخص لنا الاسلام في كلمة واحدة "العدل".

- عن حرية المرأة تحضرني دائما كلمات الشاعر نزار قباني "الحرية ليست ارنبا يخرج من قبعة الحاوي.. لكنها ثمرة تنضج في مجتمع مهياً لاستيعاب فكرة الحرية". الى اي مدى المجتمع العربي مهياً لاستيعاب هذه الفكرة؟ لا تفارق بنرة الامل والتفاؤل كلماتها:
(ليس هناك مجتمع مهياً او غير مهياً.. لا بد ان تأخذ المرأة حريتها بيدها و تمارسها، اذا رضخت للخوف والتهديد لن تستطيع ممارسة حريتها في اي مجال. الحرية لها ثمن.. انا مثلاً دفعت ثمنها غاليا لحريتي.

المجتمع العربي مستعد لاستيعاب الفكرة بشرط وجود التصميم والاصرار لدى المرأة وان تكون مستعدة لدفع ثمن حريتها. خوف المرأة من ممارسة حقوقها قد يدفعها الى اتجاه من يحاولون تهميشها بدلا من السعي نحو الاتجاه الذي سيخلق منها كائنا حرا قويا. اما انتظر ان يقدم لها المجتمع حريتها و حقوقها على طبق من فضة.. هذا لن يحدث ابدا.

حتى مفهوم كلمة "حرية" علينا اعادة النظر فيه بعد ان افتقدت شريحة كبيرة من الفتيات الفهم الصحيح للحرية كونها مسئولية ودور معتبرين ان الحرية هي اخذ اسوأ ما في الغرب وأسوأ ما في الشرق)

- اذا حاولنا رسم صورة مستقبلية للمرأة العراقية... كيف ستكون ملامح هذه الصورة؟.. نوال السعداوي لها نظرة مختلفة عن كل دعاوى التشاؤم:

(انا متفائلة بمستقبل العراق عامة.. الشعب العراقي -والمرأة جزء منه- سيصبح اعظم شعوب المنطقة العربية. المرأة العراقية دفعت ثمناً غالياً لحريتها من الدم و الالم.. قدمت ضريبة الحرية التي تستحقها. لن تستطيع التيارات السلفية ودعاوى التخلف من قهرها مهما بلغ شدة الضغوط التي تمارس عليها، بعد ان عرفت التمرد على القهر والفاشية، فانها سترفض العودة للوراء مهما كانت التضحيات. في فترة من التاريخ تعرضت اوربا لصراعات كنسية ودينية ادت الى دمارها وغرقها في بحور الدم.. لكنها عادت اقوى مما كانت عليه. كل الدلائل امامي تؤكد عودة المرأة العراقية الى ريادتها و قوة دورها في المجتمع العراقي).

لينا مظلوم – كاتبة و صحافية عراقية - مصر